ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء

كتبه غريب بتاريخ الخميس ٥ ذي الحجة ١٤٤٢

في نقاش مع أحد مدعي المعرفة في بلدنا سألني معاجزا هل قول اللّٰه تعالى:

‹وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ›1

يعني أن في وحي اللّٰه بيان كل شيء؟!

فأجبته طبعا فيه بيان كل شيء, وهل تشك في ذلك بعد أن قالها ربنا عز وجل؟!

فقال الرجل لا أشك, ولكنني لا أجد فيه بيان كل شيء.

فأخبرته أن الوحي فيه بيان كل شيء كما أخبر ربنا عز وجل, ولكن هذا البيان لا يهتدي له كل الناس, فقط المسلمين ولذلك قال ربنا تكملة للآية:

‹وَهُدًى وَرَحمَةً وَبُشرى لِلمُسلِمينَ›2

فلابد من أن تكون من المسلمين حتى تجد وحي اللّٰه عز وجل بينات, وهدى, ورحمة, وبشارة, وإلا فأنت ممن ختم اللّٰه على قلبه كما قال ربنا عز وجل.

أسقط في يد الرجل، فهو أمام خيارين إما الاعتراف بأن الله بين كل شيء فعلا كما أخبر ربنا، وإما أن يشهد على نفسه بالكفر.

إن هذا الرجل في الحقيقة ليس بدعا من علماء الأمة المعاصرين، فكلهم يرون أن وحي الله عز وجل ليس فيه بيان كل الدين أصلا، فضلا عن بيان كل شيء، لذلك من المسلمات عندهم أن الدين يقوم على النص والاجتهاد، فالنص لا يحوي كل شيء برأيهم.

في هذه السطور سوف نناقش كيف كفرت الأمة بهذه الآية بشكل تدريجي حتى وصلنا إلى الحال التي نحن عليها اليوم، وذلك من خلال المحاور التالية:

- في الوحي تبيان كل شيء
- تفسير الشافعي لقوله سبحانه: وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ
- تعليق على تفسير الشافعي
- بعض نتائج تفسير الشافعي
- خاتمة
- المراجع

في الوحي تبيان كل شيء

إذا رجعنا للقرآن والسنة نجد أن الله عز وجل أكد أشد توكيد على أن الوحي فيه بيان كل شيء من ذلك قوله سبحانه:

<وَيَومَ نَبعَثُ في كُلِّ أُمَّةٍ شَهيدًا عَلَيهِم مِن أَنفُسِهِم وَجِئنا بِكَ شَهيدًا عَلى هؤُلاءِ وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً وَبُشرى لِلمُسلِمينَ>[3]

إن اللّٰه عز وجل يبين بصريح الآية أن الكتاب أنزل من أجل أن يبين كل شيء, فلم يبق أي شيء أيا كان إلا وفي كتاب اللّٰه – الذي هو القرآن والسنة كما سبق وبينا – بيانه, وقد أكد اللّٰه على هذا المعنى في قوله سبحانه:

‹لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ما كانَ حَديثًا يُفتَرى وَلكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ›[4]

وفي قوله:

‹وَما مِن دابَّةٍ فِي الأَرضِ وَلا طائِرٍ يَطيرُ بِجَناحَيهِ إِلّا أُمَمٌ أَمثالُكُم ما فَرَّطنا فِي الكِتابِ مِن شَيءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِم يُحشَرونَ›[5]

وقوله:

‹وَجَعَلنَا اللَّيلَ وَالنَّهارَ آيَتَينِ فَمَحَونا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلنا آيَةَ النَّهارِ مُبصِرَةً لِتَبتَغوا فَضلًا مِن رَبِّكُم وَلِتَعلَموا عَدَدَ السِّنينَ وَالحِسابَ وَكُلَّ شَيءٍ فَصَّلناهُ تَفصيلًا›[6]

كما بين ربنا عز وجل، أن مهمة رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم هي البلاغ المبين، حيث قال:

‹فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيكَ البَلاغُ المُبينُ›[7]

وقوله:

‹قُل أَطيعُوا اللَّهَ وَأَطيعُوا الرَّسولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيكُم ما حُمِّلتُم وَإِن تُطيعوهُ تَهتَدوا وَما عَلَى الرَّسولِ إِلَّا البَلاغُ المُبينُ›8

وغيرها من الآيات التي تؤكد على أن مهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم هي البلاغ المبين، وقد أدى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه المهمة على أكمل وجه.

فلم يبق خير إلا دل عليه، ولا شر إلا وحذر منه، وغلق الطريق على كل متقول، حيث بين أن ما لم يأمر به صلى الله عليه وسلم مردود أيا كان قائله، حيث قال:

من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد 9

لقد علم المؤمنون هذا، وآمنوا به فكانوا يعيشون على هدى من ربهم، في راحة وطمأنينة، لهم في كل حين من أحيانهم نور يهتدون به، ثم خلف بعدهم خلوف أضاعوا الكتاب واتبعوا أهواءهم، فحرفوا الدين، وصيروه آراء بشرية.

وكان أول ما كفروا به الآية التي صدرنا بها مقالنا، حيث نبذوا الكتاب وراء ظهورهم و قدموا عقولهم على بيان رسول الله الثابت عنه، وكسروا بيضة الدين.

فصار الدين مجالا لكل ناعق يقول فيه برأيه ما أوحته شياطينه من الأنس والجن من زخرف القول, كما سنبين إن شاء الله في المقالات القادمة من سلسلة من القمة إلى هاوية.

تفسير الشافعي لقوله سبحانه: وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ

في تلك الظروف القاتمة التي شاع فيها أصحاب الرأي, ظهر الشافعي, وأتى بتفسير لهذه الآية حاول أن يكون وسطا بين أهل الرأي والمؤمنين حيث قال:

قال الشافعي: فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها.

قال الله تبارك وتعالى: (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) (إبراهيم 1)

وقال: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون) (النحل 44)

وقال: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) (النحل 89)

وقال: (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا, ما كنت تدري ما الكتاب, ولا الإيمان, ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا, وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) (الشورى 10(52

ثم شرع في شرح البيان الذي ذكر الله في الآية حيث قال:

قال الشافعي: والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع:

فأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة: أنها بيان لمن خوطب بها ممن نزل القرآن بلسانه، متقاربة، الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض. ومختلفة عند من يجهل لسان العرب.

قال الشافعي: فجماع ما أبان الله لخلقه في كتابه، مما تعبدهم به، لما مضى من حكمه جل ثناؤه: من وجوه.

فمنها ما أبانه لخلقه نصا. مثل جمل فرائضه، في أن عليهم صلاة وزكاة وحجا وصوما وأنه حرم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن، ونص الزنا والخمر، وأكل الميتة والدم، ولحم الخنزير، وبين لهم كيف فرض الوضوء، مع غير ذلك مما بين نصا.

ومنه: ما أحكم فرضه بكتابه، وبين كيف هو على لسان نبيه؟ مثل عدد الصلاة، والزكاة، ووقتها، وغير ذلك من فرائضه التي أنزل من كتابه.

ومنه: ما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس لله فيه نص حكم، وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى حكمه، فمن قبل عن رسول الله فبفرض الله قبل.

ومنه: ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه, وابتلى طاعتهم في الاجتهاد, كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم.

فإنه يقول تبارك وتعالى: (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين, ونبلو أخباركم) (محمد 31)

وقال: (وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم) (آل عمران 154)

وقال: (عسى ربكم أن يهلك عدوكم, ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون؟) (الأعراف 129)

قال الشافعي: فوجههم بالقبلة إلى المسجد الحرام, وقال لنبيه: (قد نرى تقلب وجهك في السماء, فلنولينك قبلة ترضاها, فول وجهك شطر المسجد الحرام, وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) (البقرة 144)

وقال: (ومن خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام, وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره, لئلا يكون للناس عليكم حجة) (البقرة 150) .

فدلهم جل ثناؤه إذا غابوا عن عين المسجد الحرام على صواب الاجتهاد, مما فرض عليهم منه, بالعقول التي ركب فيهم, المميزة بين الأشياء, وأضدادها, والعلامات التي نصب لهم دون عين المسجد الحرام الذي أمرهم بالتوجه شطره.

فقال: (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) (الأنعام 97) ,
وقال: (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) (النحل 16)

فكانت العلامات جبالا وليلا ونهارا, فيها أرواح معروفة الأسماء, وإن كانت مختلفة المهاب. وشمس وقمر, ونجوم معروفة المطالع والمغارب, والمواضع من الفلك.

ففرض عليهم الاجتهاد بالتوجه شطر المسجد الحرام, مما دلهم عليه مما وصفت, فكانوا ما كانوا مجتهدين غير مزايلين أمره جل ثناؤه. ولم يجعل لهم إذا غاب عنهم عين المسجد الحرام أن يصلوا حيث شاؤوا.11

تعليق على تفسير الشافعي

إننا إذا تأملنا هذا التفسير نجد أن الشافعي فسر الكتاب بالقرآن, وهو تفسير خاطئ كما سبق وبينا حيث أن الكتاب يعني الرسالة التي أنزلت على محمد صلى الله عليه وسلم والتي تتكون من القرآن والسنة.

هذا التفسير – أي الكتاب بالقرآن – سيقود صاحبه إلى نفي ظاهر الآية, فالقرآن ليس فيه تفصيل كل الدين, حيث أن أغلب شرائع الإسلام إنما أتت مفصلة في سنة رسول الله, وهذا ما ظهر جليا في شرح الشافعي للبيان حيث جعله على ثلاثة أنواع ما بين الله نصا في لقرآن, وما بينه على لسان نبيه, ونوع ثالث ابتدعه قال فيه:

ومنه: ما فرض الله على خلقه الاجتهاد في طلبه, وابتلى طاعتهم في الاجتهاد, كما ابتلى طاعتهم في غيره مما فرض عليهم.

وهذا الكلام لو تأملته لعلمت أن الله بحسب هذه الدعوى لم يبين كل شيء، بل ترك بعض الأشياء غامضة يجب بحسب الشافعي على المرء الاجتهاد فيه، وهذا مناقض لصريح الآية.

لقد استدل الشافعي على دعواه بالتوجه إلى البيت الحرام، ولو تأملت هذا الدليل الذي ذكره لعلمت أن اجتهاد الناس في التوجه شطر المسجد الحرام، لا علاقة له بالآية الصريحة البينة القاطعة في وجوب التوجه شطر المسجد الحرام عند الصلاة، وتمت كلمات ربنا صدقا وعدلا.

فالآية التي استدلت بها كانت صريحة وقاطعة في أن القبلة هي البيت الحرام، أن أن بيان القبلة تم بأحسن ما يمكن.

وبقي على الناس التنفيذ بحسب استطاعتهم، وقد بين ربنا في موضع آخر على لسان رسوله أن الأوامر تحب بحسب المستطاع،

فعلى الناس تتوجه شطر المسجد الحرام بحسب استطاعتها، وليس في الآية إشكال يوجب الاجتهاد في بيان ما يتوجه إليه المرء في الصلاة.

بعض نتائج تفسير الشافعي للآية

إن هذا التفسير الذي أتى به الشافعي فضلا أنه مناقض لصريح الآية، كان له الأثر السيء على ماهية العلم، فالعلم ليس الوحي حصرا وإنما بحسب الشافعي الإجماع والقياس أيضا حيث قال:

وهذا الصنف من العلم: دليل على ما وصفت قبل هذا على أن ليس لأحد أبدا أن يقول في شيء حل ولا حرم إلا من جهة العلم. وجهة العلم الخبر: في الكتاب, أو السنة, أو الإجماع, أو القياس.

وهذا هو المنطلق الذي قاد أتباع الشافعي فيما بعد إلى جعل الوحي قاصرا عن استيعاب عشر معشار الشريعة كما قال الجويني الشافعي:

وأيضا: فإن معظم الشريعة صدر عن الاجتهاد والنصوص لا تفي بالعشر من معشار الشريعة.12

وهكذا تحول الوحي الذي أنزل تبيانا لكل شيء, إلى كتاب عاجز عن استيعاب عشر معشار الشريعة بحسب الجويني ومن سار وفق هذا المنهج الذي يناقض صريح القرآن.

خاتمة

أخيرا أيها القارئ انظر في أمرك هل أنت مصدق مؤمن بقول الله عز وجل

﴿وَنَزَّلنا عَلَيكَ الكِتابَ تِبيانًا لِكُلِّ شَيءٍ﴾

كما أخبر, تجد في الوحي بيان كل شيء, والهدى والرحمة, وليس بعد الهدى إلا الضلال.

أم أنك مكذب بصريح القرآن وطاعن في بيان الله عز وجل وبلاغ رسوله كما فعل سلفك، ولا خيار ثالث.

المراجع

1- النحل: ٨٩

2- النحل: ٨٩

3- النحل: ٨٩

4- يوسف: ١١١

5- الأنعام: ٣٨

6- الإسراء: ١٢

7- النحل: ٨٢

8- النور: ٥٤

9- الحديث وتخريجه ورواته هنا.

10- الرسالة المجلد الأول الصفحة 19

11- الرسالة المجلد الأول الصفحة 21

12- البرهان في أصول الفقه المجلد الثاني الصفحة 37.